سلسلة نساء النبى ﷺ
(١)

أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّة

خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ

رضى الله عنها



تأليف
محمد محمود القاضى

الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ١٥٦١١/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولـــي: I.S.B.N
977-265-646-9

دار التــوزيع والنــشــر الإســلامـيـــة
مصــر - القاهــــرة - السيدة زينـب ص ب ١٦٣٦
٢٥١ش بور سعيد ت:٣٩٠٠٥٧٢ - فـاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة : ٨ ميدان الســيدة زينـب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

خديجة الشريفة الطاهرة

كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، ولقد زاد فى ثروتها أنها من أسرة غنية عريقة الأصل فى قريش، فهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشية الأسدية، وأمها فاطمة بنت زائدة العامرية، وقد تزوجت مرتين فى أسر غنية أيضًا، فقد تزوجت أولاً أبا هالة بن زرارة التميمي، فلما مات تزوجها عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومات أيضًا بعد أن ترك لها ثروة كبيرة مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى، وكانت خديجة تنمِّى أموالها بمعونة بعض ذوى ثقتها، وتستأجر رجالاً من قريش للعمل فى تجارتها..

وكانت خديجة قد ردت خطبة الذين خطبوها من كبار قريش: لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها.. وكانت تحظى باحترام قومها وتقديرهم مما جعلهم يلقبونها بالطاهرة..

محمد فى طريقه إلى خديجة:

وكان أبو طالب عم النبى ﷺ رجلاً فقيراً كثير العيال.. فأحب أن يجد لمحمد ابن أخيه مصدرًا للرزق أوسع مما يجيئه مُن رعى الغنم، وخاصة أنه فى ريعان شبابه ولا غنى له فى هذه المرحلة عن زوجة.. وهذا أمر

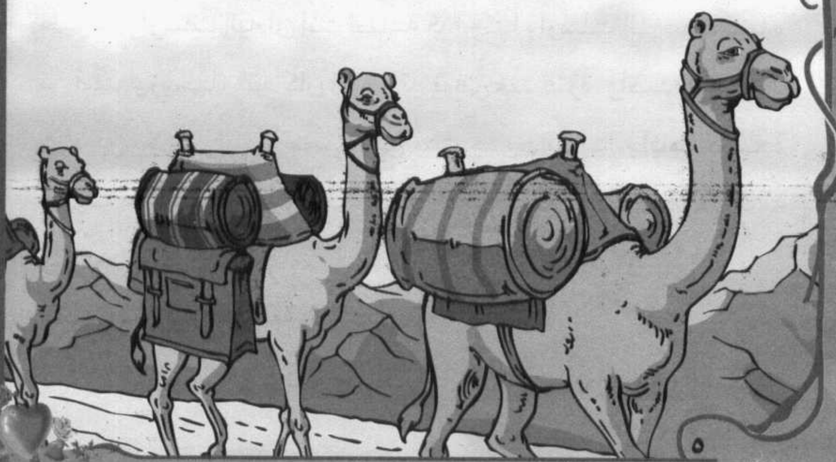
يحتاج إلى سعة فى الرزق..

وبينما أبو طالب يفكر فى هذا الأمر بلغه أن خديجة بنت خويلد تجهز لخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة.. فنادى أبو طالب ابن أخيه محمداً، وكان يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره، وقال له: يا ابن أخى، أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغنى أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين (جملين) ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلمها؟ فوافق محمد، فخرج أبو طالب إليها فقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة بِكَار.. وكانت خديجة تسمع عن محمد وأخلاقه وشهرته بين قومه بصفتين من أعظم الصفات التى تتمناها فيمن يعمل عندها وهما الصدق والأمانة.. كما أنه لا يخفى عليها وهى المرأة العاقلة الرشيدة مكانة محمد وأسرته فى قريش كلها، فكان جوابها على أبى طالب: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب.. فعاد أبو طالب إلى محمد فرحًا مسرورًا وحكى له ما حدث وقال له: هذا رزق ساقه الله إليك.

رحلة التجارة المباركة:

خرج محمد مع ميسرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به، وانطلقت القافلة إلى الشام.. وهناك فى الشام استطاع محمد بأمانته ومقدرته أن يتاجر بأموال خديجة تجارة أوفر ربحًا مما فعل غيره من قبل، واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبة ميسرة وإجلاله.. فلما آن لهم أن يعودوا اشترى محمد لخديجة من تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتيها به.

وانطلق محمد إلى بيت خديجة ليقص عليها ما صنعه فى تجارتها، فاستقبلته استقبالاً كريمًا، واستمعت إلى حديثه وهى مغتبطة مأخوذة، وانصرف محمد وجاء بعده ميسرة ليروى لسيدته عن محمد ما جعلها تنبهر بشخصه وخلقه أكثر وأكثر، مما جعلها وهى السيدة التى بلغت الأربعين من عمرها وردت من قبل خطبة أعظم قريشا شرفًا ونسبًا



تتمنى أن تتزوج بهذا الشاب الكريم .. وكأنها أحست أن القدر ساقه إليها لأمر يعلمه الله وحده..

الزواج المبارك:

لم تستطع خديجة أن تكتم ما فى نفسها ناحية محمد، فباحت بسرها إلى أختها وإلى صديقتها نفيسة بنت منية، وربما أنها كانت تشعر ببعض الحرج من هذا الأمر وخاصة أنها كانت فى الأربعين من عمرها، ومحمد فى الخامسة والعشرين من عمره.. فأدركت نفيسة ما فى نفس خديجة فأسرعت إلى محمد وقالت له: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قالت نفيسة: خديجة. قال: وكيف لي بذلك؟ فأخبرته نفيسة أنها ستكفيه هذا الأمر.. فوافق محمد.. وذهبت نفيسة إلى خديجة وأخبرتها.. ففرحت خديجة وأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فقد كان أبوها قد توفى منذ فترة، وأصدقها محمد عشرين بكرة، وانتقل محمد إلى بيت خديجة ليبدأ وإياها صفحة جديدة من صفحات الحياة، وأغناه الله سبحانه بها وأصبح فى سعة من المال.

خديجة ريحانة البيت السعيد:

أحبَّت خديجة محمداً حباً شديداً، فكانت له نعم الزوجة الصالحة،

المعينة لزوجها، والمتفقدة لأحواله، والموافقة لهواه، فكانت حياته معها حياة طمأنينة ودعة ونعمة بفضل مودتها ووفائها..

وكان محمد هو الذى يقوم على رعاية أموال خديجة وتنميتها واستثمارها.

وكانت خديجة قد رأت فى زوجها مَيْلاً إلى التفكر والتأمل، فكانت إذا رأته على هذه الحالة هيَّأت له الجوَّ المناسب لحالته هذه.. لتؤكد بذلك حقًّا أن الله سبحانه قد اختارها واصطفاها من بين سائر النساء لتكون رفيقة نبيِّه فى هذه المرحلة من مراحل حياته.

خديجة الأم:

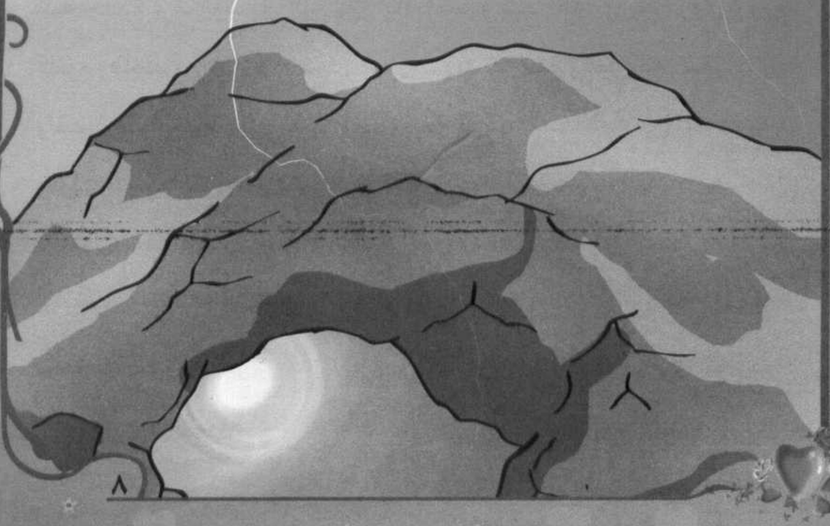
أكرم الله سبحانه خديجة بأن جعلها أمًّا لأولاد النبى ﷺ، فهى أم أولاده جميعًا عدا إبراهيم فهو ابن مارية رضى الله عنها، فقد رزق الله خديجة من رسول الله ﷺ بالقاسم وعبد الله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وشاء الله سبحانه أن يموت القاسم وعبد الله صغيرين.. ولقد ترك موتهما فى نفس أبويهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موتهما من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أمومتها جرحين داميين، فكم كانت تتمنى أن تطول الحياة بابنيها الذكرين ليكونا امتدادًا لأبيهما، وخاصة أن الأسرة العربية فى هذا الوقت كانت تهتم اهتمامًا بالغًا بالأبناء الذكور، وكان الحرص على إنجاب الذكر يوازى الحرص على الحياة بل يزيد عليه..

وعلى الرغم من حب العرب للذكور، فإن خديجة لم تهمل شأن بناتها، فقد اهتمت بهن اهتمامًا كبيرًا ،أحسنت تربيتهن حتى تقرَّ بهن عين أبيهم، مما جعل أهل مكة جميعًا يرغبون فى مصاهرة محمد والزواج من إحدى بناته..

خديجة فى رحاب النبوة:

كان محمد يذهب كل عام فى رمضان إلى غار بأعلى جبل حراء فى شمال مكة ليقيم فيه، ويقضى وقته فى العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، بعيدًا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة مكتفيًا بالقليل من الزاد الذى تهيئه له خديجة وتبعث به إليه.. وفى بعض الأحيان كانت تذهب بنفسها إلى محمد فى الغار لتطمئن عليه وتتفقد أحواله.

وذات يوم وبينما هو فى الغار جاءه الملك، فقال له : اقرأ. فقال محمد : ما أنا بقارئ. فأحس كأن الملك يمسكه بشدة ثم يرسله ويقول له:



اقرأ . قال محمد : ما أنا بقارئ! فأحس كأن الملك يجذبه إليه ثم يرسله ويقول: اقرأ . قال محمد وماذا أقرأ؟ قال الملك:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق ١-٥]

.. فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نُقشت فى قلبه.. وخرج الرسول ﷺ من الغار حتى إذا كان فى وسط الجبل سمع صوتًا من السماء، فنظر فإذا هو جبريل يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل..

وأسرع محمد إلى بيته وهو يرتجف كأن به الحمى.. ويقول: زَمِّلُونى زَمِّلُونى فاستقبلته خديجة وهى مشفقة عليه للحالة التى كان عليها. وأحضرت له الغطاء بسرعة وغطَّته به فى فراشه.. فلما ذهب عنه الروع بعض الشيء، نظر إلى زوجته خديجة التى كانت تقف عند رأسه وقال لها: مالي يا خديجة؟ وأخبرها الخبر.. وقال: قد خشيت على نفسي.. فقالت خديجة له بيقين واطمئنان: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا.. إنك لتصل الرحم.. وتصدُق الحديث.. وتحمل الكلَّ (الضعيف).. وتقرى الضيف.. وتعين على نوائب الحق.. ثم قالت له أيضًا: أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة.

ووقعت كلمات خديجة فى قلب محمد موقعًا جميلاً خفَّف عنه بعض ما كان فيه، فأخذته سنة من النوم..

وأرادت خديجة أن تتأكد من صدق إحساسها، فانطلقت هى ومحمد

إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد، وكان امرءًا تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الخط العربي وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا قد عمي.. فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فحكى له محمد ما رآه.. فقال ورقة: هذا الناموس (الوحى والرسالة) الذى نزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعًا (شابًّا قويًّا)، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: **أو مخرجىَّ هم؟** قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا. وتوفى ورقة بعد ذلك بقليل.

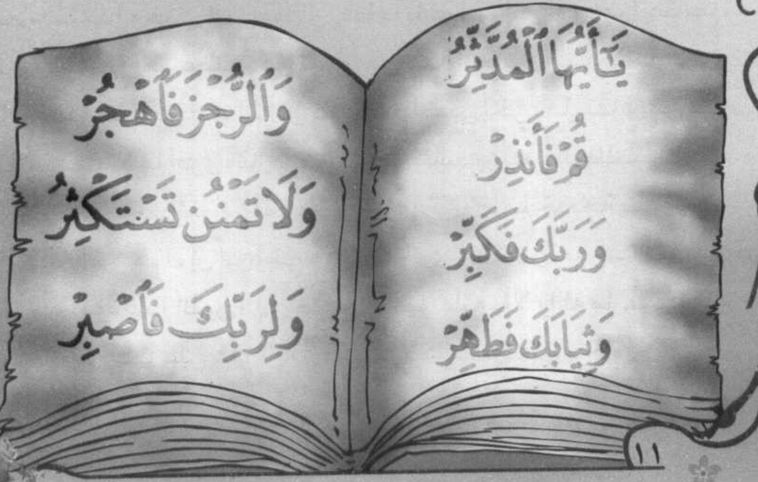
وبعد عدة أيام وبينما محمد يمشى سمع صوتًا من السماء فرفع بصره فإذا الملك الذى جاءه بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فأسرع محمد ﷺ إلى خديجة وقال: **زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى**، فغطَّته خديجة.. وبعد فترة رأت العرق يتصبب منه.. ثم قام الرسول ﷺ ونزل عليه قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر ١-٧]

فنظرت خديجة إلى زوجها الحبيب نظرة إشفاق وتقدمت إليه فى رقَّة وضراعة، فأخبرها محمد بما نزل عليه من الوحى..فأعلنت خديجة فى شوق ولهف إسلامها له وإيمانها بنبوته.. فكانت خديجة أول خلق الله أسلاماً.

وكان طبيعيًّا أن تسارع خديجة إلى الإيمان برسول الله ﷺ، وقد جرَّبت

عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلوَّ النفس وحب البر والرحمة، وكانت ترى بثاقب نظرها أن الله جمع فى محمد ﷺ خير ما فى طبقات الناس من ميزات.

وتتابع الوحى بعد ذلك على رسول الله ﷺ، وأرادت خديجة أن تمتحن برهان الوحى لتزداد إيمانًا ويقينًا فقالت لرسول الله: يا ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فأخبرني به.. فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله لخديجة: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني. قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى. فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها. قالت: هل تراه؟ قال: **نعم**. قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى. فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى. فقالت: هل تراه؟ قال: **نعم**. قالت: فتحول فاجلس فى حجرى. فتحول رسول الله ﷺ فجلس فى حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: **نعم**.



فتحسرت خديجة وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ثم قالت له: هل تراه؟ قال: **لا** . قالت: يا ابن عم، اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

وكان لإيمان خديجة أعظم الأثر فى نفس رسول الله ﷺ، فكانت وزير صدق له، وخفَّف الله عن رسوله بها، فكان لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفِّف عليه وتصدقه وتهون أمر الناس..

ويروى أن رجلاً اسمه عفيف البجلي قدم مكة فى تجارة له أول بعثة الرسول فنزل على العباس بن عبد المطلب.. يقول عفيف: فبينما أنا عنده وأنا أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس فارتفعت إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة فرفع رأسه إلى السماء فنظر ثم استقبل الكعبة قائمًا مستقبلها، إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه، ثم يلبث إلا يسيرًا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب فركع الغلام، وركعت المرأة، ثم رفع الشاب رأسه ورفع الغلام رأسه ورفعت المرأة رأسها، ثم خرَّ الشاب ساجدًا وخرَّ الغلام ساجدًا وخرَّت المرأة، قال: فقلت يا عباس إني أرى أمرًا عظيمًا! فقال العباس: أمر عظيم، هل تدري من هذا الشاب؟ قلت: لا ما أدري. قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن أخي. هل تدري من هذا الغلام؟ قلت: لا ما أدري. قال: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن أخي. هل تدري من هذه المرأة؟ قلت: لا ما أدري. قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي هذا. إن ابن أخي هذا الذي ترى حدثنا أن ربه رب السماوات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، فهو عليه. ولا والله ما علمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

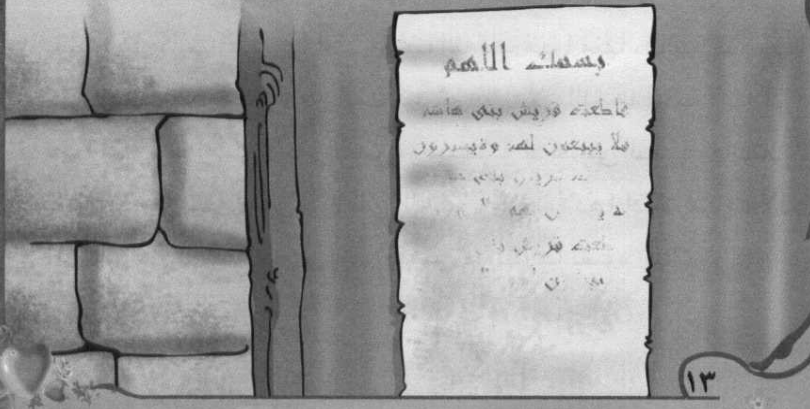
خديجة مع الرسول ﷺ فى شعب أبى طالب:

كانت قريش قد عقدت العزم على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب لمَّا رأوهم قد أحاطوا بمحمد، وكتبوا بذلك صحيفة وعلَّقوها على جدار الكعبة.. ودامت المقاطعة ثلاث سنوات، واشتد الحصار، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغ الجهد والجوع بالمسلمين مبلغًا عظيمًا..

وكانت خديجة رضى الله عنها قد دخلت الشِّعب مع رسول الله ﷺ، وكان بإمكانها ألا تفعل، ولكنها لم تترك الرسول ﷺ وعشيرته والمسلمين يعانون آثار هذه المقاطعة وحدهم.. وحاولت بكل الطرق والوسائل أن تخفِّف من حدِّة هذا الحصار، فكانت تأمر ابن أخيها حكيم بن حزام أن يشترى لها قمحًا ويحمله سرًّا إلى شعب أبى طالب وتطعمه لأهل الشِّعب.. حتى إنها أنفقت جزءًا كبيرا من مالها خلال هذه الفترة.. فما أعظم وفاء السيدة خديجة التى شاركت رسول الله ﷺ سرَّاءه وضرَّاءه.

أعظم بشرى:

وكان لهذه المواقف العظيمة للسيدة خديجة أن تُبَشَّر ببشرى عظيمة يتمناها كل مسلم، فقد قال لها رسول الله ﷺ: «**لقد أتانى جبريل فقال:**



هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب». (متفق عليه)

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها وجاءه منها عدة أولاد ولم يتزوج عليها قط ولا تسرَّى إلى أن قضت نحبها.

وقال على بن أبى طالب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران**" (متفق عليه).

ورُوى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**خير نساء العالمين مريم وآسية وخديجة بنت خويلد وفاطمة**".

وهى ممن كمل من النساء، وكانت عاقلة جليلة دَيِّنة مصونة كريمة من أهل الجنة وكان النبى ﷺ يثنى عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ويبالغ في تعظيمها بحيث إن عائشة كانت تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة: من كثرة ذكر النبى ﷺ لها..

قالت عائشة :كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة: فيحسن عليها الثناء، فذكرها يومًا من الأيام فأدركتنى الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزًا قد أخلف الله لك خيرًا منها. قالت: فغضب حتى اهتزَّ مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أخلف الله لى خيرًا منها لقد آمنت إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله عز وجل أولادها إذ حرمنى أولاد النساء. قالت: فقلت بينى وبين نفسى لا أذكرها بسوء أبدًا.

فراق وحزن ووفاء:

وفي رمضان من العام العاشر من بعثة النبى ﷺ وقبل الهجرة بثلاث سنوات توفيت خديجة وهى إذ ذاك فى الخامسة والستين من عمرها، وصعدت روحها الطاهرة إلى خالقها ليجزيها خيرًا عمًّا قدمت للنبى ﷺ وللإسلام، وكانت قد أمضت مع النبى ﷺ رحلة طويلة من العمر امتدت خمسًا وعشرين سنة، وهى فترة من أعظم فترات حياة الرسول ﷺ، فكانت تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره فى أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه فى مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها.. ولكل هذا حزن عليها النبى ﷺ حزنًا بالغًا..

ودفنت رضى الله عنها بالحجون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذٍ سنَّة الجنازة الصلاة عليها، وكانت وفاتها فى العام الذى توفى فيه أبو طالب عم النبى ﷺ، فاجتمعت على النبى الكريم ﷺ مصيبتان، واشتد حزنه ولذلك سمى المسلمون هذا العام عام الحزن.

وبلغ من وفاء الرسول ﷺ لها بعد وفاتها أنه ربما ذبح الشاة يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى أصدقاء خديجة، وكان يكرم أختها هالة بنت خويلد ويقربها من مجلسه إذا قدمت عليه..

وكان أى شىء يذكره بخديجة يبعث فى نفسه أثرًا عظيمًا ما بعده أثر:

فقد حدث أن خديجة لما زوجت ابنتها زينب لابن أختها أبى العاص ابن الربيع، أهدت لزينب قلادة جميلة ثمينة هدية عرسها، وظل أبو العاص على كفره حتى كانت غزوة بدر، فأسره المسلمون فى أثناء الغزوة، فأرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ هذه القلادة إلى المسلمين لتفك بها أسر زوجها، فلما رأى النبى ﷺ القلادة عرفها، فرقَّ قلبه وتذكر خديجة، وطلب من المسلمين أن يفكوا أسر أبى العاص وأن يردوا لزينب قلادتها..

فرضى الله عن خديجة أم المؤمنين، وزوجة النبى الكريم ﷺ.

